

زها حديد حين تحوّلت العمارة إلى لغةٍ تعيد تشكيل العالم

قراءة في التجربة المعمارية والفكرية للمعمارية العراقية العالمية زها حديد

إعداد:

م.م نور الهدى عباس شهاب

شعبة شؤون المرأة – جامعة النهرين

البريد الإلكتروني: nour_alhuda@nahrainuniv.edu.iq

لم تعد العمارة في العصر الحديث مجرد فنٍ لتشييد الأبنية بل تحوّلت إلى لغةٍ ثقافية تعبّر عن هوية المجتمعات وتصوراتها المستقبلية. وفي هذا السياق برزت زها حديد بوصفها واحدة من أبرز الشخصيات التي أعادت صياغة المفهوم المعاصر للعمارة، من خلال رؤيتها التي جمعت بين الجرأة الهندسية والخيال الإبداعي والبعد الفني.

لم تكن زها حديد مجرد مهندسة معمارية عراقية حققت حضوراً عالمياً واسعاً، بل كانت تجربة فكرية وفنية متكاملة أعادت تعريف العلاقة بين الإنسان والفضاء المعماري. فقد استطاعت أن تنقل العمارة من إطارها التقليدي بوصفها عملية إنشائية جامدة إلى فضاءٍ بصري يتسم بالحركة والانسيابية والابتكار، حتى أصبحت أعمالها تمثل أحد أبرز التحولات في العمارة المعاصرة.

وُلدت زها حديد في بغداد عام 1950، في مدينة تختلط فيها الحداثة بالإرث الحضاري العريق، وهو ما انعكس لاحقاً على رؤيتها المعمارية التي اتسمت بالجرأة والانفتاح على الأشكال غير التقليدية. فمنذ بداياتها الأولى لم تكن تنظر إلى المبنى بوصفه كتلة إنشائية فحسب، بل باعتباره تجربة حسية وبصرية متكاملة، قادرة على التأثير في الإنسان نفسياً وثقافياً وجمالياً.

وحين انتقلت إلى لندن لدراسة العمارة، دخلت عالماً كان لا يزال ينظر إلى العمارة بوصفها علماً تحكمه الصرامة الهندسية والأشكال الثابتة، إلا أن زها حديد اختارت مساراً مختلفاً إذ اتجهت إلى العمارة التفكيكية والانسيابية الديناميكية، معتمدةً على تشكيلات حرة وخطوط متحركة تتجاوز القوالب التقليدية للتصميم المعماري.

في تلك المرحلة واجهت صعوبات كبيرة ليس فقط بسبب غرابة أفكارها المعمارية، بل لأن المجال المعماري العالمي كان شديد التنافسية وتغلب عليه الهيمنة الذكورية. ومع ذلك استطاعت أن تفرض حضورها المهني والفكري بفضل رؤيتها المختلفة، لتتحول تدريجياً إلى واحدة من أكثر الشخصيات تأثيراً في العمارة العالمية.

ولم يكن صعود زها حديد إنجازاً فردياً فحسب، بل شكّل تحوُّلاً رمزياً في صورة المرأة العربية داخل المجالات التي طالما احتكرها الرجال، لتصبح نموذجاً عالمياً لقدرة المرأة العراقية على تجاوز الحدود التقليدية وصناعة التأثير الدولي.

امتازت أعمال زها حديد بقدرتها على دمج الجانب الإنشائي بالبعد الفني حيث بدت مبانيها وكأنها في حالة حركة مستمرة، خالية من الجمود والزوايا الحادة المعتادة. وكانت تعتمد على الانسيابية المكانية والتكوينات الحرة التي تمنح المبنى طابعاً عضوياً معاصراً وهو ما جعل تصاميمها أقرب إلى المنحوتات المعمارية الضخمة منها إلى الأبنية التقليدية.

وقد ارتكزت فلسفتها المعمارية على كسر النمطية البصرية في التصميم، من خلال توظيف الكتل الحرة والخطوط غير المتناظرة والفراغات الديناميكية، بما يمنح المبنى طابعاً حركياً يتجاوز الوظيفة التقليدية للعمارة نحو التعبير الفني والثقافي. ولهذا ارتبط اسمها عالمياً بمفهوم العمارة المستقبلية التي تدمج بين التكنولوجيا والابتكار والهوية البصرية المعاصرة.

وقد تجسدت هذه الرؤية بوضوح في عدد من أبرز مشاريعها العالمية، مثل مركز حيدر عفيف الذي عُدّ نموذجاً عالمياً للعمارة الانسيابية الحديثة، إذ ظهر المبنى بسطوحه البيضاء المتدفقة وكأنه كتلة معمارية تتحرك بانسجام مع محيطها. كما برزت بصمتها المعمارية في دار أوبرا غوانزو التي عكست مفهوم العمارة المستقبلية القائمة على التكوينات الحرة والتفاعل البصري مع البيئة الحضرية، إضافة إلى مركز لندن للألعاب المائية الذي تميز بسقفه الانسيابي المستوحى من حركة الماء.

ولم تكن قيمة هذه المشاريع في شكلها الجمالي فقط بل في قدرتها على إعادة صياغة مفهوم الفضاء المعماري الحديث، حيث تعاملت زها حديد مع العمارة باعتبارها أداة ثقافية تعكس هوية المدن وتؤثر في تجربة الإنسان داخلها.

وفي عام 2004 أصبحت أول امرأة في التاريخ تحصل على جائزة بريتزكر، وهي أعلى جائزة في مجال العمارة عالمياً في إنجاز شكّل تحوُّلاً بارزاً في تاريخ العمارة المعاصرة ورَسَّخ حضور المرأة في واحد من أكثر التخصصات التقنية والفنية تعقيداً.

كما مثّل نجاحها بعداً حضارياً مهماً لصورة المرأة العراقية والعربية، بعدما استطاعت أن تقدم نموذجاً عالمياً للمرأة القادرة على الجمع بين الإبداع الفني والكفاءة المهنية والقدرة على المنافسة الدولية. ولم يكن تأثيرها مقتصرًا على العمارة فقط، بل امتد ليصبح مصدر إلهام للأجيال الجديدة من النساء الساعيات إلى إثبات حضورهن في مجالات الفكر والهندسة والإبداع.

ورغم أن أعمالها انتشرت في مدن العالم الكبرى بقي حضور العراق واضحاً في تجربتها المعمارية؛ إذ حملت تصاميمها شيئاً من الانفتاح الشرقي والجرأة البصرية التي ميّزت شخصيتها الثقافية والفكرية. ولهذا لم يُنظر إليها باعتبارها معمارية عالمية فحسب، بل بوصفها رمزاً حضارياً عراقياً استطاع أن يربط اسم العراق بالإبداع والتميّز والحداثة.

رحلت زها حديد عام 2016، لكن أثرها لم ينته برحيلها فما زالت أعمالها المعمارية قائمة بوصفها شواهد على قدرة الإنسان على تحويل الخيال إلى واقع هندسي متكامل. لقد أثبتت أن العمارة ليست مجرد عملية تشييد، بل رؤية فكرية قادرة على إعادة تشكيل علاقة الإنسان بالمكان.

ولهذا، لم تعد زها حديد مجرد اسم في تاريخ العمارة الحديثة بل تحوّلت إلى مدرسة معمارية متكاملة، وإلى واحدة من أبرز الشخصيات التي أعادت تعريف الإبداع المعماري في القرن الحادي والعشرين، مؤكدةً أن العقل العراقي قادر على صناعة أثر عالمي يتجاوز حدود الجغرافيا والزمن.

فالإبداع الحقيقي لا يُقاس بعدد الأبنية التي تُشيّد بل بالأفكار التي تبقى قادرة على تغيير طريقة البشر في رؤية العالم.